كتب

بمجرّد إنجاز سكّة الحديد الرابطة بينهما عام 1903، ركب «علّامة الشام» القطار المتوجّه من دمشق إلى عمّان، ومنها تابَع إلى القدس، حيث كانَ الحرمُ القدسي أوّلَ ما زاره فيها، قبل أن يُواصل جولاته التي قادته إلى عدد من معالم المدينة الفلسطينية

رحلة جمال الدين القاسمي عام 1903

القدس أواخر الحُكم العثماني

محمد. م الأرناؤوط

قبل هذا التاريخ وبعده، لدينا زياراتٌ عديدة لعلماء المسلمين إلى القدس باعتبارها «أُولى القبلتَين وثالث الحرمين». ولكن زيارة جمال الدين القاسمي عام 1903 تكتسب أهمّية لمكانة صاحبها في المشرق، ولحرصه على تدوينها، مع الملاحَظات التي أوردها عن زيارته خلال السنوات الأخيرة من حُكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1976 - 1909)، وهو الذي كاد أن يذهب ضحيّتَه بتهمة «الاجتهاد»، وكان من أهمّ المؤيِّدين للحركة التي أرغمت السلطان على تفعيل الحكم الدستوري في صيف 1908. وقد صدرت هذه الرحلة في عدّة طبعات، كانت آخرها التي حقّقها محمد بن ناصر العجمي ونشرتها «دار البشائر الإسلامية» في بيروت عام 2015.

اشتهر جمال الدين القاسمي (1866 - 1914)، في دمشق بعد اعتقاله وتقديمه إلى المحاكمة بتهمة «الاجتهاد» في عام 1895، وهي القضية التي أثارت الرأي العام وأحرجت الإدارة العثمانية، وعُرفت باسم «حادثة المجتهدين». وكان القاسمي قد شارك مع مجموعة من علماء دمشق (عبد الرزاق البيطار، وأحمد الحسني الجزائري، وسليم سماره، وتوفيق الأيوبي، وسعيد الفرا، ومصطفى الحلّاق وغيرهم)، في تشكيل حلقة تجتمع بشكل دوري لقراءة ومناقشة الكتب. وقد اشتهرت هذه الحلقة آنذاك باسم «جمعية المجتهدين»، لكون أعضائها من المتنوّرين الداعين إلى الاجتهاد. ولكن القاسمي عرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه ويُحرج المفتي، وانتهى الأمر بإطلاق سراحه والاعتذار له، وهو ما رفع شأنه في دمشق التي تابع مجتمعُها باهتمام كبير هذه المحاكمة.

واشتهر القاسمي أكثر حين زار القاهرة في عام 1903 والتقى فيها بالشيخين محمد عبده ورشيد رضا، حيث أُطلق عليه لقب «علّامة الشام»، وقد ردّ رشيد رضا الزيارة له في دمشق عام 1908، وهو العام الذي جمعهما في موقفهما المشترك في نبذ الحُكم المطلق للسلطان عبد الحميد باسم الإسلام وتأييد الحكم الدستوري. وشارك، حينئذ، القاسمي في الاحتفال بإعلان الحُكم الدستوري في جمع من كبار الشخصيات في بيت الشيخ سليم الكزبري بدمشق، حيث أُلقيت الكلمة التي كتبها، وهي على قدر كبير من الأهمّية؛ حيث بيّنت منزلة القانون الأساسي أو الدستور (الذي كان تعبيراً جديداً آنذاك) في الدين، وأوضحت أنّه ليس فيه ما يخالف الشرع، بل هو، على العكس، مما أوجبه الدين وأمر به.

عُني القاسمي بالبحث والتأليف بروح العصر ومستجدّاته، وهو ما يبدو في مؤلَّفاته التي تجاوزت المئة، وحملت جديداً؛ مثل تفسير القرآن «محاسن التأويل»، و«الفتوى في الإسلام»، و«تعطير المشام في مآثر دمشق الشام»، الذي طُبع لأوّل مرّة مُؤخّراً في خمسة أجزاء، ومن ذلك أيضاً رحلاته التي حرص على تدوينها.

القدس أقرب بالقطار

كانت زيارة القدس للقادمين إلى دمشق للحج من آسيا الوسطى إلى البلقان سُنّة مستحبّة تكون عادة في الإياب بعد رحلة طويلة تستغرق شهوراً. ولكن الأوضاع بدأت تتغيّر في مطلع القرن العشرين مع البدء بشقّ سكّة حديد تنطلق من دمشق وتنتهي بمكّة، وهو ما جُوبه بعقبات كثيرة في تنفيذها حتى 1908. في غضون ذلك، كان قد أُنجز الجزء الأوّل حتى عمّان في 1903، وهو ما شجّع القاسمي على أن يُجرّب «الوابور» في هذه الرحلة.

تُمثّل هذه الرحلة إلى عمّان - والتي سنتناولها في مناسبة أُخرى - ومنها إلى القدس، إضافةً نوعية، لأنّها تُبرز شخصية القاسمي التوّاقة إلى التجديد في عهدٍ اتّسم بالجمود والتقليد في بلاد الشام. ولذلك يلاحَظ عنه حرصه على حمل الكتب معه، واقتناء ما هو مناسب، والخوض مع العلماء الذين التقاهم في مناقشات علمية، مع الإشارة إلى واقع الحال في تلك المدن. وكان اللافت في رحلته اكتشافه للوجود الشركسي في عمّان والوجود الفلسطيني في السلَط في طريقه إلى القدس، الذي بقي على حاله كما من قرون. كانت الرحلة من السلَط إلى القدس على الدواب كما في القرون الخالية. ولذلك نزل بعد الظُّهر في خان بين أريحا والقدس، وتابع في اليوم الثاني طريقه بعدما أدّى صلاة الفجر، ليدخل القدس في ضحى يوم الثلاثاء 22 صفر الموافق للخامس من أيار/ مايو 1903 من باب الأسباط، حيث أنزله المكاري في خان بالقرب منه. وبمجرد أن وضع أمتعته في الغرفة، استعجل الذهاب إلى الحرم المقدسي، واصفاً مشاعره بتأثّر: «لا تسلْ عمّا هجم علينا من السرور المفرط، وانشراح الصدر، وبهجة النفس، وانتعاش الفؤاد، وحسبناه قطعة من الجنّة قد دخلناه حامدين شاكرين لفضله، ونحن نكفكف الدمع فينهمر».

وقد عُرض على القاسمي أن يترك الخان وينزل في «الزاوية الداودية» بالقرب من الحرم، التي هي «منزل الفضلاء القادمين لهذه البلدة ولها طعامية سلطانية»، وخصّوه هناك بـ«غرفة فخيمة»، ولكنّه رغب في أن ينزل في غرفةٍ بالحرم، فوجدوا له مطلبه داخل الحرم «جهة منبره الأيمن، جانب مقصورة الحديد». وتبدو شخصية القاسمي في ليلته الأُولى وهو يقرأ كتاب الحنبلي المعروف «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»، ليكتشّف أنّ المكان الذي خُصّص له كان وقفاً خصّصه السلطان صلاح الدين الأيوبي على رجل صالح. في اليوم التالي، عرض عليه مجاور الحرم أن يُلقي درساً عامّاً، بعد أن شكا المجاور «فقْد العلماء من تلك الديار المباركة»، فاعتذر القاسمي خشية أن يصيبه العجب والغرور وهو يرى واقع الحال. وفي الواقع يلاحظ الفرق بين الأيام التي قضاها في عمّان بصحبة «فقهاء الجراكسة» التي كانت تتميّز بـ«مذاكرات علمية ولطائف أدبية واستصحاب كتب أشهى لدينا من منادمة العروس»، وبين الأيام التي قضاها في الحرم، وكانت تفتقد مثل هذه الجلسات العلمية بسبب «فقد العلماء» كما قال له المجاور.

ولكن القاسمي، بروحه الشغوفة، عوّض ذلك بالتجوّل في القدس للاطلاع على ما هو جديد. وفي هذا السياق، زار «المكتبة الخالدية» التي كانت قد تأسَّست عام 1900، فأُعجب بما رآه من مقتنياتها. ولمّا عرف القائمون على المكتبة شخصية الزائر ألحّوا عليه أن يكتب شيئاً في سجلّ الزوّار فاعتذر القاسمي. ولكن مع الإلحاح، كتب في السجلّ قصيدة من وحي اللحظة كشفت عن انجذابه للقدس وما فيها من مشاهد جاء في مطلعها:

«أيُّها الزائر بيت المقدس
يبتغيه بعد شقّ الأنفس
أحمد المولى بما أولى إذا
ما بدت أعلام نور القدس».

كما زار القاسمي، وهو الذي تنبّه مبكّراً إلى أهمّية الطباعة في نشر المعرفة بدمشق، «مطبعة اللاتين» التي تأسّست في القدس في 1846، ثمّ تجدّدت عام 1900 لتُضاهي المطابع في أوروبا، فوصف ما فيها وعبّر عن إعجابه بما شاهده.

القدس المسيحية

مع حرص القاسمي على زيارة كلّ الأماكن المقدَّسة عند المسلمين في القدس، بما في ذلك محلّ البراق الذي نزل إليه ثمّ خرج من باب المغاربة للتجوّل خارج السور، كان حريصاً أيضاً على زيارة الأماكن المقدَّسة عند المسيحيّين، بحُكم انفتاحه على التعايش الديني في دمشق. فقد تعرّف هناك إلى دمشقي صحبه أوّلاً في زيارة «مقام السيّدة مريم عليها السلام، وهو في كنيسة تُسمّى الجثمانية»، ثم صحبه إلى جبل الزيتون؛ حيث «أراني غالب مزاراته، ومنها مصعد السيّد عيسى عليه السلام، على ما يرونه، وهو صخرة فيها أثر قدم داخل قبّة»، وذهب بعد ذلك لزيارة كنيسة القيامة، «فتقدّمَنا أحد بوّابيها المسلمين، وأرانا جهاتها العلوية والسفلية، موضعاً موضعاً».

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

بين الأماكن المقدَّسة

مع حرصه على زيارة كلّ الأماكن المقدَّسة عند المسلمين في القدس، كان القاسمي حريصاً أيضاً على زيارة الأماكن المقدَّسة عند المسيحيّين، بحُكم انفتاحه. فقد تعرّف هناك إلى دمشقي صحبه أوّلاً في زيارة «مقام السيّدة مريم عليها السلام، وهو في كنيسة تُسمّى الجثمانية»، ثم إلى جبل الزيتون؛ حيث «أراني غالب مزاراته، ومنها مصعد السيّد عيسى عليه السلام»، ثمّ إلى «كنيسة القيامة».

ترك قرابة مئة كتاب، من ضمنها رحلاته التي حرص على تدوينها

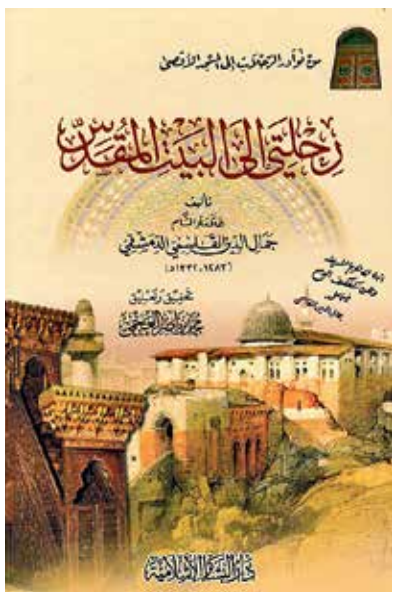

زار «المكتبة الخالدية» و«مطبعة اللاتين» وأُعجب بهما

المسجد الأقصى عام 1903

النص الكامل
على الموقع الألكتروني

نظرة أولى

عن «مركز حضارات للدراسات السياسية والاستراتيجية»، صدر كتاب **دراسات في الأسْر** للأسير المقدسي **أيمن عبد المجيد سدر**. يضمّ الكتاب خمس دراسات تتناول كفاءة وفعالية القرارات الاستراتيجية المتعلّقة بإضراب حماس في سجون الاحتلال في أيلول/ سبتمبر 2019، والفرار من سجن جلبوع، والممارسة الديمقراطية للحركة الأسيرة في سجون الاحتلال، و«إضراب بركان الحرية أو الشهادة» الذي أُعلن عنه في آذار/ مارس الماضي، ووقّع خلاله الأسرى الفلسطينيون على وصية جماعية، إلى جانب دراسة تاريخية نقدية ترصد تجربة «كتائب القسام - خلية القدس» الميدانية.

الحرب البيئية في غزّة: العنف الاستعماري ومساحات المقاومة الجديدة عنوان كتاب الباحثة **شوريدة مولافي** الصادر عن «منشورات بلوتو»، في سبعة فصول. يتناول العمل كيفية عزل الاحتلال لقطاع غزّة بـ«غلاف» من المستوطنات، راحت تتوسّع وتقتطع أراضي فلسطينية جديدة بعد كلّ حرب إبادية تشنّها «إسرائيل»، منذ بدء حصارها للقطاع عام 2007. يتطرّق الكتاب، أيضاً، إلى استخدام المُبيدات الكيميائية التي قضت على الغطاء النباتي في محيط غزّة، الأمر الذي سهّل على الجيش الصهيوني حركته ووسّع نطاق رؤيته. بُني البحث على شهادات حيّة لمُزارعين غزّاويّين.

للباحث الفلسطيني **علي الجرباوي** صدر، عن «المؤسَّسة العربية للدراسات والنشر»، كتابٌ بعنوان **من الطرد إلى الحكم الذاتي: المسعى الصهيوني لوأد فلسطين**. ينطلق الباحث من المعضلة التي وجدت فيها «إسرائيل» نفسها بعد عام 1967، فالسرعة التي انتهت بها الحرب لم تمنحها المجال، كما حدث في حرب 1948، لتفريغ الأرض المحتلّة من أهلها. بعد الحرب، انهمكت «إسرائيل» في البحث عن مواءمة تمكّنها من الاستمرار في الاحتفاظ بالأرض، لكن مع وقاية مستقبلها من تبعات تزايد وجود الفلسطينيّين فيها، ثم وجدت ضالتها باعتماد نموذج مشوّه من الحُكم الذاتي.

هذه هي قصة حنظلة، الشخصية التي قفزت من الرسوم الكاريكاتيرية لتصبح راية النضال للشعب الفلسطيني. من الإدانة الشُّجاعة إلى النقد العنيف، ومن تكريم الشهداء إلى الثورة، بقيت رمزية حنظلة حاضرة في وعي الإنسان الفلسطيني المقاوم حتى يومنا هذا. يعرض كتاب **فلسطين في عينَي حنظلة**، الصادر عن دار «سوداستا» الإسبانية، قصّة الفنّان الفلسطيني ناجي العلي (1936 - 1987)، مُبتكر شخصية حنظلة، كما يحتوي أبرز رسوماته التي وقّعها في زمن المجازر والمقاومة، وجعلت منه رمزاً ثورياً مضيئاً لشعبه، وألدّ أعداء جيش الاحتلال الإسرائيلي.

الاستيطان الأوروبي في بلاد الشام: مملكة بيت المقدس أنموذجاً (1187 - 1099م) عنوان كتاب للباحث **مصعب حمادي نجم الزيدي**، صدر عن «دار النهضة العربية». يُضيء العملُ طبيعةَ الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية للأوروبيّين الذين استوطنوا في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ويتناول قيام الملوك ورجال الدين الصليبيّين بتأسيس المستوطنات في مملكة بيت المقدس من أجل الاستقرار بشكل دائم في الأراضي المقدَّسة، وكيف كان لاعتماد المسلمين الجهاد وتوسيع قاعدته الدور الكبير في تقويض دعائم ذلك الكيان الطارئ.

عن «دار صفحات للنشر والتوزيع»، صدرت الطبعة العربية من كتاب الباحث النرويجي **تيري أوستيغارد علم الآثار السياسي والنزعة القومية المقدّسة: المعارك الأثرية على الكتاب والأرض في إسرائيل وفلسطين** (1967- 2000)، بتوقيع المترجم محمود الصباغ. يُفكّك الكتاب البُنى الخطابية التي تُسخّر عِلم الآثار ليكون أداةً أيديولوجية، كما يقرأ الرابط بين هذا العِلم والنزعة القومية، حيث يجري استخدام الماضي لشرعنة عمليات السطو على الحاضر، ما يُتيح لدولة الاحتلال أن تضفي على وجودها «صيغاً شرعية»، وإن لم تكن سوى دعوى عنصرية أو إثنية.

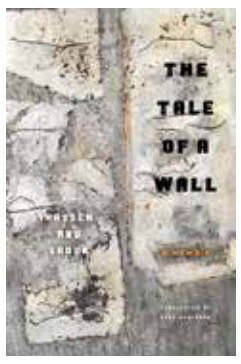

تصدر قريباً عن «أذر برس»، النسخة الإنكليزية من رواية **حكاية جدار** للأسير الفلسطيني **ناصر أبو سرور** بترجمة لوك ليفغرين. في جزئها الأوّل، تتناول الرواية، التي تقترب من السيرة الذاتية، سنوات الطفولة التي عاشها الكاتب في مخيّم عايدة بين مدينتَي بيت لحم وبيت جالا، وفترة دراسته الجامعية حين نفّذ مع رفاقه أوائل عام 1993 عملية استهدفت ضابطاً إسرائيلياً، ليُعتقل إثرها ويُحكم عليه بالسجن المؤبّد، وأثناء اعتقاله تمكّن من إنهاء دراسته الجامعية ونيل درجة الماجستير في العلوم السياسية، كما أصدر مجموعته الشعرية «عن السجن وأشياء أُخرى».

في كتاب **فلسطين: القصّة الجوهرية**، الصادر عن منشورات «باسيس سيمبرا» الكتلانية، يشرح أستاذ التاريخ المعاصر في «جامعة فالنسيا» **خورخي راموس تولوسا**، القصّة الحقيقية للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. بدءاً من وعد بلفور، والاستعمار البريطاني، والصهيونية العالمية، وصولاً إلى الفصل العنصري، والقرارات الدولية ودور الأمم المتّحدة، بما هي مفاتيح يستخدمها أستاذ التاريخ لشرح كيف توسّعت الصهيونية، وكيف بدأت حركاتُ المقاومة في فلسطين، كما يُفرد مساحة للحديث عن نضال النساء الفلسطينيات، ودورهنّ في مواجهة فظائع الاحتلال الصهيوني.